قصيدة أبي طالب اللامية في الدفاع عن الرسالة المحمدية

الدكتور خالق داد ملک
الأستاذ المشارک بقسم اللغة العربية
جامعة بنجاب بلاهور

كان أبوطالب بن عبد المطلب عمّ المصطفى صلوات اللّٰه وسلامه عليه الذي رافق حياته الطاهرة منذ أن تولّى كفالته بعد موت جدّه عبد المطلب وحتى وفاته، وكان أبو طالب أديبا بالسليقة، شاعراً مطبوعا، قوله جيد، محكم التراكيب، شريف المعاني، وإذ الم ينقل عنه كثير من النثر الأدبي (١)، فإن شعره قد سجلته كتب السيرة النبوية ، وحفلت به كثير من كتب اللغة والأدب والتاريخ وغيرها من كتب التراث ، وهو شعر وفير، مابين قصائد طويلة، ومقطوعات، قد دار معظمه حول الدفاع عن الرسالة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام وقد صرخ فيه أبوطالب في وجه المعاندين المتربصين بمحمد ﷺ ورسالته ونافح به عن الرسالة المحمدية منافحة الواثق بها في كل ميدان وفي مواجهة كل خطر،

يرجوحينًا ويعنف حينًا آخر، يهدّد مرة ويتوعد أخرى، حتى اجتاز أبوطالب بابن أخيه كثيراً من المخاطر، ودفع عنه العديد من المكائد التى كان يكيدها أباطرة الكفر وطواغيت الشرك من قريش وغيرهم ، فكان أبوطالب بذلك عونًا، وأي عون، للرسالة المحمدية، وجنديًا من جنودها الأوائل الذين ذادواعنها بكل مايملكون وبذلوا كل مالديهم من وسائل في سبيل الحفاظ عليها، وكذلك كان أبوطالب أوّل الشعراء الذين رافقوا مسيرة النبوة، وأسبقهم جميعاً إلى الوقوف بجانبها، ودرء الأخطار عنها، فكان عونًا لها، واليد الحانية التي امتدّت إليها في أحلك أوقاتها، وأقسى مراحل حياتها، وهكذا كان أبوطالب الصخرة التي تحطمت عليها آمال الكفار من قريش، والسهم الذي أدمى قلوب المشركين وأعي حيلهم، وظلّ أبوطالب على ذلك العطاء الرحب حتى لفظ آخر أنفاسه، فاستحق بذلك أن يكون شاعر الرسالة والدعوة المحمدية بلا نزاع أو تردّد.

أبوطالب:

اسمه عبد مناف، وقيل: عمران، وقيل: شيبة ، لكنه اشتهر بكنيته"أبوطالب"نسبة إلى أكبر أبنائه "طالب" ويلقب بسيد البطحاء ، ورئيس مكة وغيرها. قال الإمام ابن حجر:"أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي، القرشي الهاشمي ، عم رسول اللّهﷺ ، شقيق أبيه ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية ، اشتهر بكنيته، واسمه عبد مناف على المشهور، وقيل: عمران، وقال الحاكم :أكثر المتقدمين على أن اسمه كنيته " (٢)

فكان أبو طالب أحد أعمام رسول اللّه ﷺ الأحد عشر، وسادس

أولاد عبد المطلب بن هاشم الذكور من حيث المولد، وهو شقيق عبد الله أبي النبي ﷺ وأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية (٣)

وولد أبوطالب بمكة قبل مولد النبي ﷺ بخمسة وثلاثين عامًا سنة ٥٣٥ م ، وكان راجح العقل وحسن الخلق ، وتعلّم من والده العلم والأدب وحسن الإدارة، وملك قلوب القوم بحسن خصاله ، ولما توفي والده عبد المطلب، وكان النبي ﷺ ابن ثماني سنوات، فكفله عمه أبوطالب باعتباره اكبر الأعمام سنًّا ، واستجابة لتوجيهات أبيه عبد المطلب الذى كان يوصيه بابن أخيه دائما ويحثه على رعايته له، فضمه إلى أولاده الستة (٤ فأصبح واحداً منهم.

ولما صار أمر النبي ﷺ إلى عمه كان به حفيًا، وكان إليه ومعه، كما قال ابن اسحاق، وقال الواقدي بسنده عن مجاهد وعن ابن عباس وغيرهما قالوا: "لما توفي عبد المطلب ، قبض أبوطالب رسول الله ﷺ فكان يكون معه، وكان أبوطالب لا مال له، وكان يحبّه حبًا شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلّا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وصبا به أبوطالب صبابة لم يصب مثلها بشئ قط، وكان يخصّه بالطعام، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أوفرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله شبعوا ، فكان إذا أراد أن يغديهم قال: كما أنتم حتى يأتي ولدي، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبوطالب لابن أخيه: إنك لمبارك، وكان الصبيان يصبحون رمصاشعثا، ويصبح رسول الله ﷺ دهينًا كحيلًا.(٥)

وكان للنبي ﷺ بعمه من الحنين مثل مابعمه له، فلما تهيأ

أبوطالب للرحيل إلى الشام، وأجمع السير مع أشياخ من قريش للتجارة تعلق به النبي ﷺ ورغب في الخروج معه، وكان ابن اثنتي عشرة سنة وهي مرحلة من العمر تصدق فيها العواطف ، وتصح الأحاسيس، فكيف بها في إنسان كريم، اصطنعه اللّه لنفسه، وأعده للرسالة الكبرى! فرق أبو طالب لابن أخيه وأجابه إلى ما ابتغى وقال: "واللّه لأخرجن به معى ، ولا أفارقه ولا يفارقني أبدًا" وخرج به معه. (٢) فكانت هذه الرعاية الدائمة سبيلا إلى تثبيت دعائم الحبّ والإعزاز بين العم وابن أخيه وجعلت كلّا منهما يتعلّق بالآخر ويحسّ بإحساسه.

وقد روى ابن هشام أن أزمة شديدة من القحط والجوع أصابت قريشاً، وكان أبوطالب ذاعيال بدون مال كثير ، فأحس النبي ﷺ بما يواجهه عمه أبوطالب من فقر وحاجة فسارع إلى عمه العباس وكان من أغنياء بني هاشم وقال له: ياعم، إن أخاك أباطالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمة، فانطلق بي إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلًا، وتأخذ أنت رجلًا آخر فنتكفلهما. فاستجاب العباس لابن أخيه وانطلقا معًا إلى أبي طالب وقالا له: إنا نرى أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ماهم فيه، فقال أبوطالب وقد أجهدته الحاجة في أخريات حياته: إذا تركتما لي عقيلًا فاصنعا ماشئتما. فأخذ النبي ﷺ عليًّا وضمّه إليه، وأخذ العباس جعفراً وتركا عقيلًا وطالبًا مع أبيهما، ولم يزل عليّ رضي اللّه عنه مع الرسول ﷺ حتى بعثه اللّه نبيًّا ، فكان أول شباب مكة تصديقًا للرسالة المحمدية، وبقي جعفر عند العباس حتى قوي ساعده واستقل بنفسه وأعلن إسلامه بعد عليّ بقليل.(٧)

ونرى في رواية لابن اسحاق أن أباطالب يتعامل مع ابنيه محمد(ﷺ) وعليّ بكل الحبّ وصادق الودّ ورقيق المشاعر عندما يلقاهما، بعيدا في أحد شعاب مكة، وهما يصلّيان كما تعودا من قبل، فسأل رسول اللّه ﷺ في حنان الأبوة: يا ابن أخي، ماهذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال:أى عم ، هذا دين اللّه ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم، بعثني اللّه به رسولًا إلى العباد ، وأنت أي عم، أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابنى إليه، وأعانني عليه، فقال أبوطالب: أي ابن أخي، إنى لاأستطيع أن أفارق دين آبائي، وما كانوا عليه ولكن..... واللّه..... لا يخلص إليک بشئى تكرهه مابقيت! ثم سأل ابنه عليًا: يا بني، ماهذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: ياأبت، آمنت باللّه وبرسول اللّه ، وصدقت ما جاء به، وصليت معه للّه واتبعته، فقال أبوطالب لابنه الذي فارق دينه: أما أنه لم يدعک إلّا إلى خير فالزمه.(٨)

وقد أورد ابن كثير روايةَ: جا ء ت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيک هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا ، فانهه عنا.• فقال أبوطالب: ياعقيل، انطلق فأتنى بمحمد. فانطلق عقيل فاستخرج النبي من بيت صغير فجاء به في الظهيرة في شدة الحرّ ، فلما أتاهم قال أبوطالب لابن أخيه: إن بنى عمک هؤلاء زعموا أنک تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم ، فانته عن أذاهم. فحلق رسول اللّه ﷺ ببصره إلى السماء فقال: ترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قال: فما أنا بأقدر أن أدع ذلک منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة. فقال أبوطالب: واللّه، ماكذب ابن أخى قط فارجعوا. رواها البخاري في التاريخ ورواها البيهقى أيضا.(٩)

وفي رواية أخرى قال أبوطالب له ﷺ: فابق علي وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك. فظنّ رسول اللّه ﷺ أن قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله، وفي رواية البيهقى:أن النبي استعبرو بكى ، فلما ولى قال له أبوطالب حين رأى مابلغ الأمر برسول اللّه ﷺ: أقبل يا ابن أخي ، فأقبل عليه رسول اللّه ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخى ، فقل ماأحببت ، فواللّه لا أسلمك لشيء أبدا ، (١٠) ثم قال أبوطالب :

واللّه لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة
واجهر وقرّ بذاك منك عيونا
ودعوتني وعلمت أنك ناصحي
فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بإنه
من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة
لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

فهذه الأبيات الخمسة من شعر أبي طالب تعرب عن الأمور التالية:

١. إصرار أبي طالب على الدفاع والذود عن ابن أخيه والوقوف في وجه جموعهم حتى الرمق الأخير.

٢- إشاعة تأييد أبي طالب ونصرته في قلب ابن أخيه في دعوة قوية أن يجهر برسالته.

٣- إن الرسول ﷺ دعاعمه بخاصة ودعا الناس بعامة، وكان الصادق الأمين والناصح الشفوق.

٤- إنه عرف أن الدين الذى يدعو إليه محمد هو خير الأديان التى عرفها الناس.

٥- إنه لم يهتد بهذه المعرفة إلى الإيمان والإذعان للدين الحق رغبة في أن يبقى بمأمن من تنقص المتنقصين له إن هو آمن وصدق وهو اتباع للآباء لا يجمل بالعقلاء، والهدى بكل حال..... هدى اللّه.

وقد اختلف الباحثون حول إسلام أبي طالب، والرأى الصحيح أنه لم يثبت بالدليل القاطع إسلامه (١١) وإن كانت نصرته للرسول ﷺ وأصحابه قد استمرت حتى فارق هذه الحياة ، ولذلك كان رسول اللّه ﷺ حريصًا على إسلامه حتى ينال ثواب ما قدمت يداه لكن إرادة اللّه فوق كل إرادة، وقد أشار ابن كثير إلى حكمة العليم الحكيم بقوله:

"وكان استمراره..... أبي طالب..... على دين قومه من حكمة اللّه تعالى ، ومماصنعه لرسوله من الحماية إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولاجترأوا وعليه وولوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه وربّك يخلق مايشاء و يختار."(١٢)

وقد أنهى ابن كثير كلامه عن أبي طالب بالكلمات التالية:

"وقد قدمنا ماكان يتعاطاه أبو طالب من المحاماة والمحاجة والممانعة عن رسول اللّه ﷺ والدفاع عنه وعن أصحابه، وما قاله فيه من الممادح والثناء، وما أظهره له ولأصحابه من المودّة والمحبة والشفقة في أشعاره، وما تضمنته من العيب والتنقيص لمن خالفه وكذبه بتلك العبارة البليغة الفصيحة الهاشمية المطلبية التي لا تداني ولا تسامى ولا يمكن عربيًا مقاومتها ولا معارضتها وهو في ذلك كله يعلم أن رسول اللّه ﷺ صادق بار راشد ولكن مع هذا لم يومن قلبه، وفرق بين علم القلب وتصديقه."(١٣)

وكانت وفاة أبي طالب في شوال أوفي ذى القعدة وعمره بضع وثمانون سنة، وكانت السيدة خديجة رضوان اللّه عليها قد ماتت قبله بخمسة وثلاثين يومًا، وقيل : كان بينهما خمسة وخمسون يومًا، وقيل: ثلاثة أيام: (١٤) والمشهور أنه مات قبل هجرة النبي ﷺ بثلاث سنين وأربعة أشهر وماتت خديجة بعده بثلاثة أيام (١٥) وبموتهما فقد النبي ﷺ المنعة والنصرة على قومه، واليد الحانية التي كانت تخفف عنه كثيراً مما يلاقيه من أذى أعدائه ، فقد اشتدت قريش في إيذائه ﷺ بعد موت أبي طالب، ولذلك يقول ﷺ: مانالت قريش مني شيئا أكرهه حتى مات أبوطالب."(١٦)

قصيدته اللامية:

عندما كان أبوطالب في الشعب مع الرسول ﷺ وصحبه وقومه كان يناشد قريشاً أن تكف عن بغيها، وكانت مناشدته تأخذ أساليب وصورا كان منها قصيدته اللامية التي يقول عنها ابن كثير: "هذه قصيدة عظيمة بليغة جدًا لا يستطيع أن يقولها إلّا من نسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع ، وأبلغ في تأدية المعنى فيها جميعًا.(١٧)

وكذلك قيل : "إن شهرتها كشهرة " قفانبك" وإن جازالشك فيها أوفي شئى أبياتها ، جاز الشك في قفانبك" وفي بعض أبياتها "(١٨)

ويقول ابن سلام عن هذه القصيدة :

"وكان أبوطالب شاعراً جيد الكلام ، وأبرع ماقاله قصيدته التي مدح فيها النبي صلى الله عليه وفيها :

وأبيض يستقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى، عصمة للأرامل

وقد زيد فيها وطولت، ورأيت في كتاب يوسف بن سعدصاحبنا منذ أكثر من مئة سنة، وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ، ولاأدرى أين منتهاها، وسألني الأصمعي عنها فقلت : صحيحة جيدة ، قال : أتدرى أين منتهاها ؟ قلت : لا "(١٩)

وإن هذه القصيدة اللامية قدأورد ابن هشام أبياتها التي بلغت عنده أربعة وتسعين بيتاً ، وقد نقل هذه القصيدة عن ابن هشام ، الإمام

السهيلى في الروض الأنف ، وأوردها ابن كثير في البداية والنهاية مع اختلاف في بعض الألفاظ والأبيات ، ويقول عنها صاحب السيرة الحلبية: "لقد بلغت هذه القصيدة أكثر من ثمانين بيتاً" (٢٠)

ويذكر ابن هشام أن أباطالب قد أنشأ هذه القصيدة بعد أن أجمع أعداء الدعوة المحمدية على الجلوس بالطرقات في موسم الحج ليحذروا القادمين إلى بيت الله الحرام من محمد رسول الله الذى يسحر الناس بقوله ، فخشى أبوطالب دهماء العرب أن ينالوا ابن أخيه بأذى مع قومه فقال هذه القصيده التي تعوذ فيها بحرم مكة ، وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في شعره أنه غير مسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تاركه لشئ أبداً حتى يهلك دونه فقال:

ولما رأيت القوم لاودّ فيهمو ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قوماً علينا أظنة ... يعضون غيظا خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عندالبيت رهطي وإخوتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل
قياماً معاً مستقبلين رتاجه ... لدى حيث يقضى حلفه كل نافل
وحتى ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفضى السيول من أساف ونائل
موسمة الأعضاء أو قصراتها ... مخيمة بين السديس وبازل
ترى الودع فيها والرخام وزينة ... بأعناقها معقودة كالعثاكل(٢١)

إننا نرى في هذه القصيدة قوة ، منشؤها صدق دوافعها ، وعمق

دواعيها وما تغلفه من مشاعر إعزازا أبي طالب لابن أخيه ويقينه أن مايدعو إليه الناس هو الحق لاريب فيه. وما كان القوم ليخاصموا أباطالب أويجادلوه طرفة عين في شرف نسبه وعظيم حسبه ، لكنهم خاصموه بعد أن تلطفوا كثيراً في إثنائه عن نصرة ابن أخيه ، وأمعنوا في ذلك حين لم يجدوامنه إذعاناً ولا لياناً ، وهو في هذه الأبيات يعلن أنه حبس نفسه ، على قتالهم حين تبين له عداء القوم الدفين وأيقن أنهم قطعوا كل الروابط والوشائج ، ومارعوا عهداً ولا حفظوا ودًّا وجاهروا بالعداء والإيذاء مستجيبين لأعدى الأعداء وأشدهم حنقاً على بني هاشم ، بل أن عداوتهم قد دفعت بهم إلى محالفة أسافل الناس وأدعيانهم. ولماوجد ذلك من قومه لم يجد مفراً من تجنيد نفسه والتسلح بأنواع الأسلحة وأمضاها ، واتجه مع أقاربه وأخوانه إلى البيت الحرام متعلقين بأستاره ، مستقبلين لبابه العظيم حيث تعقد العهود والمواثيق في ذلك الحرم المقدس ، ويوفى الناس بنذورهم وعهودهم مما يعد تقرباً إلى الله تعالىٰ.

وتمضى الأبيات فتصور استجارة أبي طالب بالله من عداوة من عاداه وهو يتعلق بأستارالبيت مع رهطه وإخوته، وفي كل مقام من باب الكعبة، وفي أماكن كان لها في الجاهلية قداسة وحرمة مستعيذا باللّٰه من الحاقدين الحاسدين فيقول :

أعوذ برب الناس من كل طاعن عليناً بسوء أو ملح بباطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ومن ملحق في الدين مالم نحاول
وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه وراق ليرقى في حراء و نازل
وبالبيت ، حق البيت من بطن مكة وبالله ، إن الله ليس بغافل

وبالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ ابراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل
وأشواط بين المروتين إلى الصفا وما فيهما من صورة و تماثل
ومن حج بيت الله من كل راكب ومن كل ذي نذر ، ومن كل راجل (٢٢)

وهكذا يستمر أبو طالب في ذكر كثير من أماكن الحج ومناسكه ، فيذكر الحجر الأسود واستلام الناس له وإحاطتهم به في كل وقت، ومكان قدمي ابراهيم الخليل عليه السلا م الغائرتين في الصخرالباقيتين على مرّ العصور، ثم السعي بين الصفا والمروة وما على جانبيهما من تماثيل وصور، ثم يذكر حجاج بيت الله الحرام الذين وفدوا إليه لأداء الفريضة أولوفاء النذر راكبين أو راجلين ، كما يستعيذ بالمشعر الحرام والتهيؤ للإ فاضة من عرفات إلى المزدلفة ، ثم توقف الحجيج عندها في عودتهم من عرفات لقضاء جزء من الليل هناك في عبادة وجمع للحصى، ثم الاتجاه إلى منى ومنها إلى رمى الجمرات في صورة موكب عظيم ، وغير ذلك مما يقدسه العرب ويضعونه موضع الإجلال والتقدير.

ثم يتساء ل الشاعر بعد ذلك هل وراء ماذكر من ملجأ يلتجئ إليه العائذ ويلوذ اللائذ ؟ ! بعد أن أطاع قومنا فينا أعادينا ، وقد تمنوا أن نقتديهم من خصومهم حتى في بلاد الترك وافغانستان ، فيقول :

فهل بعد هذا من معاذ لعائذ وهل من معيذ يتقى الله عاذل
يطاع بنا العدّى وودوا لو أننا تسد بنا أبواب ترك وكابل

تم نجد أباطالب يقسم كما كانوا يقسمون ببيت اللّه أن وجودهم في الشعب لن يحقق لقريش أملهم في أن تخلومكة لهم وتخلص من

محمد وصحبه الذين آزروهم ، وأنهم لن يسلموا محمداً لعدوّه حتى يصرعوا حوله وينسى كل واحدمنهم في ذلك ولده وأهله ، وإن تطاول القتال أياماً وشهوراً أو أعواماً فإن ترك محمد وإسلامه لعداه عار أي عار؛ فإنه المبارك الذي استقى آباؤه به صغيراً فسقى الله ببركته قومه ، فهو يقول:

كذبتم-- وبيت الله-- نترك مكة ونظعن، ألا أمركم في بلابل
كذبتم-- وبيت الله-- نبزى محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن آبائنا والحلائل
وينهض قوم في الحديد إليكمو نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وحتى نرى ذا الضغن يركب ردعه من الطعن فعل الأنكب المتحامل
وإنا لعمرو الله إن جد ما أرى لتلتبسن أسيافنا بالأمائل
بكفي فتى مثل الشهاب سميدع أخى ثقة حامى الحقيقة باسل
شهورا وأياماً وحولاً مجرما علنيا وتأتي حجة بعد قابل(٢٣)

وإننا نحس في الأبيات المذكوة بحرارة العواطف وصدق المشاعر والرفض الأبي لأي تقصير في حق محمد صلى الله عليه وسلم ، فتسليم محمد أو التخلى والتنازل عنه ليس بوارد أصلاً في حسابهم مادام فيهم عرق ينبض لأنهم سيدافعون عنه بكل مايملكون حتى يصرعوا من حوله ، ولو شغلهم ذلك عن القيام بواجباتهم نحو آبائهم وزوجاتهم ، وإذا دام ذلك العناد سيرتدون ملابس الحرب في استعداد تام للقاء عدوهم وستنال سيو فهم أشراف المعاندين المخاصمين فبينهم شهاب كالشهب الراصدة في شجاعة وبسالة تفوق الوصف يحمون حقيقتهم ، وسيستمرون

في ذلك النزال مهما طال أوامتد حتى وإن استوفى الشهور بل والعام يتلوه الأعوام. ولذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نظرإلى القتلى يوم بدر مصرعين قال لأبي بكر رضي الله عنه : "لو أن أبا طالب حي لعلم أن أسيافنا أخذت بالأماثل."

ويستمر أبوطالب حديثه عن دفاع الرسالة المحمدية فيقول:

وكيف لايكون ذلك ؟ ! إ ن خذلان محمد (ﷺ) أو التخلى عنه لا يكون إلا من إنسان فاحش الخلق ، بذئ الطبع ، كسول متواكل ، ومن ذا الذي يدافع عنه إن لم ندافع عن صاحب الأخلاق والصفات الحميدة ، محمد الذي يحمي الذمار ، وهو السيد الكريم الذي يتضرع ببركته إلى الله لينزل المطر وتهطل السماء ، وهو معين اليتامى وكافلهم وعاصم الأرامل و عماد المساكين وملاذهم ويستغيث به الفقراء من آل هاشم ويهرعون إليه في نوازلهم فيحنو عليهم ويشملهم برعايته ورحمته :

وما ترك قوم-- لاأبالك-- سيداً يحوط الذمار غير ذرب مواكل
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل (٢٤)

يقول ابن عساكر : وكان ابن عمر كثيراً ما ينشد في مسجد النبى صلى الله عليه وسلم قول أبي طالب "وأبيض يستسقى الغمام بوجهه" ويذكرصاحب السيرة الحلبية أن أبا طالب استسقى برسول الله صلى الله عليه وسلم فيروى عن جلهمة بن عرفطة أنه قدم مكة وقريش في قحط ، فقال قائل منهم : اعتمدوا اللات والعزى ، وقال آخر : اعتمدوا مناة، وقال شيخ : كيف تصرفون عن الحق وفيكم باقية ابراهيم وسلالة

اسماعيل عليهما السلام ؟ قالوا: كأنك عنيت أبا طالب ، قال : نعم . فقاموا بأجمعهم واتجهوا إلى داره فقالوا: أباطالب : أقحط الوادى ، وأجدب العيال فهلم فاستسق لنا ، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجنة تجلت عنه سحابة قتماء ، وحوله أغيلمة فأخذه أبوطالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ باصبعه الغلام ، وما في السماء قزعة ، فأقبل السحاب من ههنا ومن ههنا واغدودق مطره وانفجرله الوادي وأخصب النادى والبادى (٢٥)

وقد شهد النبي النبى صلى الله عليه وسلم أن هذا البيت لأبي طالب ، فقد روي أن أهل المدينة اقحطوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكوا ذلك إليه ، فصعد المنبر فاستسقى ، فما لبث أن جاء من المطر الغزير فأتاه أهل الضواحى يشكون منه الغرق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم حوالينا لاعلينا ، فانجاب السحاب عن المدينة فصار حواليها كالإكليل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لوأدرك أبو طالب هذا اليوم لسرّه ، فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال: أجل. (٢٦)

وفي الأبيات الأخيرة من هذه القصيدة يذكر أبو طالب مرة أخرى بعض الرجال والقبائل الذين سعوا في البغض والعداوة ولم يراعوا العهود والمواثيق، وكذلك يذكر بالخير أقواماً هم بريئون من المقاطعة والعقوق ، ثم يبدى مشاعره وعواطفه نحو ابن أخيه ويقول :

لعمرى لقد أجرى أسيد وبكره إلى بغضنا، وجزآنا لآكل

و عثمان لم يربع علينا، وقنفد ... ولكن أطاعا أمر تلك القبائل
أطاعا أبيا وابن عبد يغوثهم ... ولم يرقبا فينا مقالة قائل
كما قد لقينا من سبيع و نوفل ... وكل تولى معرضا لم يجامل
وسائل أباالوليد، ماذا حبوتنا ... بسعيك فينا معرضا كالمخاتل
وكنت امرءاً ممن يعاش برأيه ... ورحمته فينا ولست بجاهل
ومرّ أبو سفيان عني عرضاً ... كما مر قبل من عظام المقاول
يفر إلى نجد و برد مياهه ... ويزعم أني لست عنكم بغافل
ويخبرنا، فعل المناصح أنه ... شفيق ، ويخفى عارمات الدواخل
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً ... عقوبة شر عاجلا غير آجل
ونحن الصميم من ذؤابة هاشم ... وآل قصي في الخطوب الأوائل
وسهم و مخزوم تمالدوا ألبوا ... علينا العدى من كل طمل و خامل
فعبد مناف أنتم خير قومكم ... فلا تشركوا فى أمركم كل واغل
لعمري لقد كلفت وجدا بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل
فمن مثله في الناس أى مؤمل ... إذا ماسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلها ليس عنه بغافل
كريم المساعى ماجد وابن ماجد ... له إرث مجد ثابت غير ناصل
وأيّده رب العباد بنصره ... وأظهر دينا حقه غير زائل
فوالله لولا أن أجيْ بسبة ... تجرعلي أشياخنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهرجدا غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لامكذب ... لدينا ولايعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد في أرومة ... يقصرعنها سورة المتطاول (٢٧)

وهذا نرى في هذه الأبيات قد عاد أبوطالب فذكر رجالاً وقبائل سمعوا فيهم قول أعاديهم ، وجروا جريهم ، وسعوا في البغضاء والشحناء ، ونقضوا جميع مواثيق الوداد ، وتأتى أفعالهم على نقيض ماوعدوابه من برّ وإحسان، وذلك من البغي الذى تدور علهيم دوائره وتجئ وفق أوائله أواخره. وكذلك ذكر بالخير أقواماً هم بُراء من العقوق والخذلان، ثم عاد يتحدث عن أرومته ليخلص إلى إظهار مشاعره وعوا طفه نحوا بن أخيه في قوله (لعمرى لقد كلفت وجداً بأحمد) فمن مثله في الناس في حكمه وحلمه ورشده وعدله وثباته وتقواه لربه الذي لايغفل عنه ولا يتخلى عن نصره، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) كريم المساعي ، ماجد ابن ماجد، لاينقد رصيد آبائه الأماجد من الحب البآذخ والشرف الشامخ بالإضافة إلى تاييد الله له الذى يرونه مرات وكرات لو أن لهم عقولاً تعي ، وأبصارا تدرك ، وقلوباً تذعن للحق بعد ماتبين واتضح .

ثم كرر أبو طالب بأسلوب آخرأنه لولا أن يسب باتباعه محمداً (صلى الله عليه وسلم) لاتبعه ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن محمداً (صلى الله عليه وسلم) آخر الأمر، كما عرفوه، هوالأمين الصادق الذي قدعصمه الله تعالىٰ من مجاراة المبطلين في قول أوفعل ، وبذلك قد تضاعف شرفه، فلا يطاوله في ذلك أحد.

وقد انتهى أبوطالب من هذا لقصيدة بقوله:

حدبت بنفسي دونه وحميته ودافعت عنه بالذرا والكلاكل

ولقد صدق أبوطالب في هذا وبرّ، وكانت أعماله وأقواله في ذلك على سواء. وهكذا نجد في هذه القصيدة النصرة الدائمة والتائيد المستمر

لمحمد صلى اللّه عليه وسلم ورسالته ودعوته ، وقد بذل أبوطالب كل الطاقات في سبيل الدفاع عن صاحب الدعوة الإسلامية ، لايفترله عزم، ولايهادن خصما أو تلين له قناة.

وخلاصة القول أن أبا طالب لم يضن بعطاء ولم يبخل بحماية في سبيل نصرة رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، ونجد في قصيدته قوة منشؤها صدق دوافعها وعمق دواعيها وما تحويه من مشاعر إعزاز أبي طالب لا بن أخيه ويقينه أن مايدعو إليه النا س هوالحق لاريب فيه، فإننا نطالع من ذلک كثيراً كثيراً في هذه القصيده التي طالت وحلقت في سماوات المعاني الكبيرة في أكثر أبياتها.

ولقد أسهم أبو طالب بجهوده الصادقة في حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم والدفاع عنه أمام عتاة الكفر وصناديد الشرك والوثنية ، فإن من يرجع إلى كتب السيرة والتاريخ الإسلامى وبعض كتب الأدب واللغة لن يتمالک نفسه من إبداء العجب والدهشة أمام ذلک الكم الكبير من القصائد والأشعار التي رافقت مسيرة الدعوة الإسلامية والتي حملت عواطف و مشاعر أبي طالب الصادقة نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعاطفه الكامل مع دعوة الحق والخير والرشاد .

وإن ما عرضناله من أشعار من قصيدته اللامية إنما هو غيض من فيض قصدنا به إلقاء الضوء على جهود تلک الشخصيصة الفذة التي سجل التاريخ الإسلامي لها صفحات مشرقة من الكفاح والسعي المشكور في سبيل الدعوة والرسالة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام وإن لم تتشرف بهدي الإسلام وفضله ونعمته، ولعل ذلک من خاصية النبوة التي يقيض الله لها من أعدائها من يتصدى للدفاع عنها ويوقع في القلوب والنفوس محبة صاحبها وينزله المنزلة الرفيعة السامية.

هوامش وحواشي

(١) قد وردت له خطبة النكاح التي قالها وهو يخطب السيدة خديجة لابن أخيه محمد (صلى الله عليه وسلم) وخطبته الأخرى في وجوه قريش عند ماحضرته، راجع: شرح المواهب للزرقانى ١/١٧٩.

وسيرة ابن هشام ١/٢٥٦ وشرح نهج البلاغة ١٤/٧٠

(٢) إحياء العلوم للغزالي ٣/ ١١٧ (القسم الرابع)

(٣) ولدت فاطمة بنت عمر و لبعد المطلب ثمانية أولاد : أربعة بنين ، وأربع بنات. وقد جعل البعض أولاد عبدالمطلب الذكور عشرة، وعدّهم آخرون ثلاثة عشر ، كماذكر البعض أن بناته خمس ، والرأي الراجح أن أولاده جميعهم سبعة عشر ، منهم ست نسوة ، وأحد عشر رجلاً ، أسلم منهم حمزة والعباس وصفية بلا خلاف ، واختلف في عاتكة وأروى ، وبقيتهم ماتوا على الشرك ، راجع : نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ١٨/٢٢١

(٤) أولاده الستة هم : طالب وعقيل وجعفر وعلي وأم هاني (واسمها :

فاخته) وجمانه. وكلهم أعقب إلا طالبا، وأمهم جميعاً فاطمة بنت أسد بن هاشم (ابنة عم أبي طالب) ولم يتزوج غيرها وقد أسلمت رضي الله عنها وهاجرت بعد موت أبي طالب إلى المدينة المنورة، وقد كانت بارة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم حتى قال عنها : "إنه لم يكن بعد أبي طالب أبر بي منها " توفيت في السنة الرابعة من الهجرة وصلى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٥) البداية والنهاية ٣٨٩/٣ والكامل لابن الأثير ٢٢/٢

(٦) السيرة الحلبية ١١٣/١ والكامل لابن الأثير ٢٣/٢

(٧) كان جعفر أسنّ من علي بعشر سنين ، أسلم بعد خمسة وعشرين، وقيل: واحد وثلاثين ، واستشهد في مؤتة في جمادى الأولى سنة ٨هـ و سنه تسع وثلاثون سنة ، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم ذا الجناحين؛ لأن الله عوضه عن يديه اللتين قطعتا وهو يحمل راية المسلمين في مؤتة بجناحين في الجنة، راجع : تاريخ الطبري ٣١٣/٢ والسيرة النبوية لابن هشام ٢٦٣/١ والسيرة الحلبية ٢٠٠/١ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩٨/١٣ .

(٨) السيرة النبوية لابن هشام ٢٥٦/١ والسيرة الحلبية ٢٥٨/١

(٩) البداية والنهاية ٤٣/٣

(١٠) راجع للروايات في هذاالموقف : الروض الأنف ١٥/٣ والبداية والنهاية ١٢٣/٣ ونهاية الأرب ٢٧٧/١٦

(١١) راجع: الروض الأنف ٢٧/٤ والسيرة الحلبية ٣٣٤/١ والبداية

والنهاية ١٣٤/١ والكامل لابن الأثير ٤٣/٢ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٦٥/١٤.

(١٢) البداية والنهاية ١٢٤/٣

(١٣) نفس المصدر ١٢٦/٣

(١٤) راجع : الكامل لابن الأثير ٦٣/٢ والمعارف لابن قتيبة (٧٤) والسيرة الحلبية ٢٣٠/١

(١٥) وبعد نقض صحيفة قريش وخروج بنى هاشم والمطلب من الشعب بثمانية أشهر وواحد وعشرين يوماً ، راجع نهاية الأرب ٢٧٧/١٦

(١٦) السيرة الحلبية ٢٣٦/١ والروض الأنف ١٤/٤

(١٧) البداية والنهاية ٥٧/٣ (ط ٢ ، مكتبة النصر بالرياض)

(١٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧٨/١٤

(١٩) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ، ص ٢٤٤ وما بعدها.

(٢٠) راجع سيرة ابن هشام ٢٩٨/١ والروض الأنف ٦٣/٣-٦٩ والبداية والنهاية ٥٣/٣-٥٧ والسيرة الحلبية ١١٢/١

(٢١) العرى : المراد مايتمسك به من العهود. الوسائل: مايتقرب به . المزايل : المفارق، والمقصود منها المبالغة في صفة العدو. أظنة : متهمين ، جمع ظنين وهم بنو بكر بن عبد مناة حيث كانت بينهم وبين قريش عداوة قديمة ، والبيت توبيخ لقريش حيث تحالفوا على أبى طالب ومن معه من ذوي أرحامهم مع قوم سفلة مطعون في نسبهم وشرفهم . صبرت نفسى : الصبر الحبس . سمراء : قناة.

السمحة : اللينة ـ العضب : القاطع ـ المقاول : الملوك والسادات. الوصائل : ثياب حمر فيها خطوط كان يكسى بها البيت. الرتاج : الباب العظيم ـ النافل : المتطوع أو الحالف ـ الموسمة : المعلمة من السمة. القصرات : أصول الأعناق ـ مخيمة : مذللة ـ السديس : من الإبل مابلغ الثامنة والبازل التاسعة ـ الودع : الخرز في أعناقها. العثاكل : الأغصان ينبت فيها الشجر.

(٢٢) الكاشح : البغيض المعرض. الدين : المرادبه هنا السيرة ـ مالم نحاول : مالم نرده و نظهر كذبه. ثور و ثبير: جبلان بمكة ـ ليس بغافل: متعلقة محذوف تقديره : عما تعملون ـ وقد ذكر الشاعر في هذه لأبيات رب الناس والله ، وهذا دليل على أنه كان يؤمن بالله كما كان عليه أكثر العرب في الجاهلية ، ولكن شركهم يعود إلى عبادتهم للأصنام. اكتنفوه: أحاطوا به. أشواط : السعي بين المروتين ـ تماثل : صور ، في الأصل : تماثيل ، أسقط ياؤها تخفيفاً و ضرورة للشعر.

(٢٣) البلابل : الأحزان والغموم ـ نبزى : نغلب ـ نصرع : نطرح على الأرض. نذهل : نشغل ـ حلائل : جمع حليلة وهي الزوج ـ الروايا : جمع راوية وهي البعير أو الحمار أو البغل الذي يستقى عليه. ذات الصلاصل : المزادة التي ينقل فيهاالماء ـ يركب ردعه : يخرلوجهه على دمه. الأنكب : المائل إلى جهة والماشي على شق ـ المتجامل: الجائر ـ الالتباس : الاختلاط ـ الأماثل : الأشراف. السميدع : السيد ـ الحول المجرم : العام الكامل.

(٢٤) يحوط الذمار : يرعى مايجب على الإنسان رعايته وحفظه. ذرب : بذئ فاحش . مؤاكل : العاجز عن الأمور واللاجئ فيها إلى الغير . ثمال اليتامى : عمادهم و ملاذهم . الهلاك : الفقراء. الفواضل : جمع فاضلة وهي النعمة المتقدمة .

(٢٥) السيرة الحلبية ١/ ١١١، ١١٢

(٢٦) السيرة النبوية لابن هشام ١ /٣٠٠

(٢٧) لم يربع : لم يعطف . قنفد : من الأعلام. نجد : ماارتفع من الأرض في بلاد الحجاز. عارمات : الشدائد . الدواخل : النمائم والإفساد بين الناس . الطمل : الرجل الفاحش لايبالى ماصنع . الواغل : الوصيل اللصيق وليس من القوم . كلفت : أولعت.

قد نقلنا معاني هذه الكلمات بتصرف من تحقيق وتعليق الشيخ محمد محي الدين عبدالحميد على سيرة ابن هشام.